

الأفغاني ومشروعه الإصلاحى

د. أحمد مفلح القضاة

جامعة الزرقاء الأهلية

يهدف هذا البحث إلى الوقوف على جهود السيد جمال الدين الأفغانيّ في الإصلاح والنهضة وأثره في المجتمع الإسلاميّ عامة وفي المجتمع المصريّ خاصة، ومواقفه في نصرته الدين والدفاع عن الإسلام، وإبراز هذا الجانب المهم الذي تغافل عنه أو شكك فيه بعض من كتبوا عن الأفغانيّ رحمه الله . فتحدثت عن جمعية العروة الوثقى ونشأتها وأثرها وعن فكر الأفغانيّ وثقافته وشخصيته . ثم عن منهجه في الدعوة والإصلاح وأساليبه في العمل لتحقيق أهدافه كما تحدثت عن الجامعة الإسلامية ودعوته إليها، وموقفه من الحضارة الغربية وتضمن البحث نقاطاً مهمة منها قضية دخول الأفغانيّ المحافل الماسونية . إن هذا البحث لم يهدف إلى ترجمة حياة الأفغانيّ والتاريخ لأعماله وإنجازاته، ولكنه يهدف إلى بيان أثر الأفغانيّ في الإصلاح والتجديد ودعوته إلى الوحدة ونبذ التعصب وفتح باب الاجتهاد .

جمال الدين الأفغانيّ : نشأته وثقافته - فكره ووعيه

نشأ الأفغانيّ في بيئة إسلاميّة ومنبت كريم ، فقد ولد عام ١٢٥٤ هـ ١٨٣٨ م في قرية أسعد أباد التابعة لـ «كونار» من أعمال كابل عاصمة بلاد الأفغان، ووالده السيد صفدر أحد سادات «كونار» ونسبه يتصل بالحسين السبط رضى الله تعالى عنه .

وقد تربى تربية إسلاميّة صالحة ، حيث اعتنى به أبوه واهتم بتعليمه ، فتعلم اللغة العربية وعلومها والفارسيّة إضافة إلى الأفغانيّة ، ودرس علوم الإسلام من

قرآن وسنة وفقه وأصول . كما درس الفلسفة والمنطق والرياضيات والفلك والتاريخ وألمّ ببعض علوم الطب والتشريح وهو في سن الفتوة والصبا ولم يبلغ سن الثامنة عشرة إلا وأصبح مستكماً غايته من تلك المعارف جميعها^(١) .

ثم سافر إلى الهند وأقام فيها نحو سنتين ، وهناك تعلم ما لم يمكنه أن يتعلمه في أسعد اباد ، فقد تعلم شيئاً عن الداروينية والمادية والمثالية والعقلانية والطبيعة وما إلى ذلك من علوم الغرب^(٢) .

كان الأفغانيّ ذكيّ الفؤاد ، وافر العقل ، ظهرت عليه دلائل النبوغ والشجاعة ، وكان لهذا الذكاء والنبوغ أثره الكبير في حياته .

ومما زاد في قدراته الثقافية والمعرفية اطلاعه الواسع على مصادر الثقافة الإسلامية وغيرها في وقت مبكر من حياته ، ودراسه المعمقة لكثير من المباحث والمسائل ، وكثرة أسفاره وتنقله في البلاد ، ومواكبته المستمرة لما يجد من معارف وثقافات ، وقد أثنى على علمه ومعرفته وثقافته كثير من العلماء والباحثين ووصفوا ما كان عليه من مواهب وشخصية عبقرية . فهذا حيدر بامات يقول فيه « كان جمال الدين عالماً فيلسوفاً كاتباً ذا اتصال ثقافي بالتيارات الفكرية العالمية ، فكان يبدو دائماً صاحباً لعقلية عصرية ، متقبلاً لجميع مناحي الفكر في زمنه إلى أوسع ما يكون »^(٣)

ويقول د . علي شلش في وصف ثقافته واطلاعه :

كانت قراءته متنوعة الموضوعات ، يأتي على رأسها الدين والفلسفة والتصوف ونظم الحكم والتاريخ واللغات ، وكانت لغته الأم هي الفارسية ،

(١) انظر : د . محسن عبد الحميد / جمال الدين الأفغاني ص ١٣ مؤسسة الرسالة ط ٢ سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م

(٢) انظر : د . هالة مصطفى / الإسلام السياسي في مصر من حركة الإصلاح إلى جماعات العنف ص ٣٨ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية / نقلاً عن د . لويس عوض / تاريخ الفكر المصري الحديث من عصر إسماعيل إلى ثورة ١٩١٩ / ١ / ٣٦ .

(٣) جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده / العروة الوثقى ص ١٥ من التقديم .

ولكن عربيته نافست فارسيته ، وله تجربة في كتابة الشعر وإن لم تزد على ثلاث قصائد ضمنها الوثائق وكلها بالفارسية في الغزل والتأمل والمدح»^(١).

ووصفه تلميذه الشيخ محمد عبده بقوله : بصير في الدين ، عارف بأحوال الأمم ، واسع الاطلاع ، جمّ المعارف ، جرى القلب اشتغل بالتدريس لبعض العلوم العقلية فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة^(٢).

شخصيته :

كان الأفغانيّ رحمه الله ذا شخصية قوية وصفات قيادية ، وصفه أديب إسحاق بقوله : « هو الحكيم البالغ الحجة ، النبیه المتوقد الذكاء ، الجري الذي لا يعرف الخوف »^(٣).

وقال عنه العنجوريّ : « وهو بالجملة والتفصيل آية من آيات القرن التاسع عشر ومعجزة من بدائع معجزاته »^(٤).

وكان لجاذبية الشخصية أثر كبير في سرعة تأثيره بالناس ، وقدرته على استقطابهم ، وهذا مادعا كثيرين من خصومه والمتعصبين عليه أن يسجلوا هذا التأثير دون أن يقدروا على إلغائه أو كتمانها ، فهذه الباحثة اليهودية نيكي كيدي التي غمزت من جانبه في مواضع من كتابها (رد الفعل الإسلامي للاستعمار) لم تتردد أن تشير إلى شخصيته بإعجاب فتقول : « إن الجاذبية الشخصية للأفغاني كانت غير عادية على نحو واضح ، وكانت له مقدرة غريبة على اقتحام الدوائر الحكومية العليا »^(٥).

(١) انظر : د. علي شلش / جمال الدين الأفغانيّ بين دارسيه ص ٦٤ دار الشروق ط ١ سنة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.

(٢) انظر : جمال الدين الأفغانيّ ومحمد عبده / العروة الوثقى ص ١٤-١٥ .

(٣) د. علي شلش / جمال الدين الأفغانيّ بين دارسيه ص ٢٠ .

(٤) المصدر السابق ص ٢١ .

(٥) المصدر السابق ص ٨٨ .

وتشير إلى أثره في الإصلاح ، وجهده في النهضة فتقول : « فهو بعد قرن من إهدار الغرب للتقاليد الإسلامية قد ساعد على تقديم مافي هذه التقاليد من جوانب تستحق الزهو بها ، ورأى أن الإصلاح يمكن ويجب أن يتم داخل حدود الإسلام»^(١)

منهج الأفغاني :

عاش الأفغاني في حقبة مليئة بالصعوبات والمشقات فالمسلمون في تخلف وانكسار ، قد تفرقت كلمتهم ووهى أمرهم . وانصدع شملهم واستسلم كثير منهم للمستعمر الأجنبي ، فرأى الأفغاني أن سبب ذلك كله هو البعد عن الدين والإعراض عن القرآن والسنة .

ومن أجل ذلك سعى بما يملك من همة وعزم إلى توحيد كلمة المسلمين ، وتنبههم للخطر الغربي المهدق بهم .

وقد دأب على الدعوة إلى الجامعة الإسلامية لتحقيق هذا القصد ، كما عمل على فتح باب الاجتهاد وبالغ في الدعوة إلى العلم والمعرفة والثقافة ، وناضل من أجل تحرير الإنسان وتفهمه غايته من الحياة وحقه في الحرية والإرادة والاختيار . كان واعيا تمام الوعي بصيراً بما يصلح الأمة وبيعثها من رقتها ، ولو أتيح له أن يستجاب لدعوته ويطبق منهجه لغير وجه التاريخ ولرجح الكفة لصالح الشرق وأهله ، والإسلام وأتباعه ، ولكنه قضى نحبه دون بلوغ أربه وإن كان قد حقق نجاحاً إلى حد كبير من الإصلاح والنهضة .

يقول الأفغاني في بيان منهجه : «لقد جمعت ماتفرق من الفكر ولمت شعث التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله فاستوقفتني الأفغان وهي أول أرض مسّ جسمي ترابها ، ثم الهند ، وفيها تثقف عقلي ، فيأيران بحكم الجوار والروابط فجزيرة العرب من حجاز هي مهبط الوحي ، ومن يمن وتباعتها ، ونجد والعراق وبغداد وهارونها ومأمونها والشام ودهاة الأمويين فيها ، والأندلس

(١) المصدر السابق ص ٨٨ .

وحمراؤها وما آل إليه أمرهم ، فالشرق الشرق ، فخصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه وتحري دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه داء انقسام أهله ، وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فعملت على توحيد كلمتهم ، وتنبيههم للخطر الغربي المحدث بهم^(١) .

- ويمكن تحديد أبرز ملامح منهجه في الدعوة والإصلاح في النقاط التالية :
- أولاً : الاهتمام بالعلم والفكر والثقافة وحث الناس من حوله على طلب العلم وبذل الجهد والوقت فيه
- ثانياً : نبذ التعصب المذهبي والدعوة إلى العودة إلى صفاء الإسلام مع احترام العلماء السابقين واجتهاداتهم
- ثالثاً : الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد ، والإنكار على من قال بإغلاقه ومنعه .
- رابعاً : الدعوة إلى الجامعة الإسلامية وبعث فكرتها ، لجمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم .
- خامساً : رفع شعار محاربة الاستعمار بعامة والاستعمار الانجليزي بخاصة ، والسعي إلى تعريف الناس بخطر هذا العدو وأثره في تخلفهم وتأخرهم ، أما وسائله لتحقيق هذا المنهج والوصول إلى الغاية المرجوة فهي كثيرة ومتنوعة منها :
- أولاً : الاهتمام بالصحافة وتشجيع أصحابه وتلاميذه على الكتابة فيها .
- ثانياً : الاشتغال بالتدريس وبحث الأفكار الإصلاحية من خلاله .
- ثالثاً : ممارسة النشاط من خلال الجمعيات السرية والعلنية .
- رابعاً : محاولة الاستفادة من معارفه وصدقاته وتسخير ذلك في خدمة غاياته
- خامساً : الأسفار الكثيرة والتنقل من مكان إلى مكان لبعث الفكرة ونشرها وإحيائها على أوسع نطاق ممكن .

(١) جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده / العروة الوثقى ص ١٣ .

وحريّ بنا أن نقف مع هذا المنهج وتلك الوسائل بشيء من التأمل وإنعام النظر، لنصل بعد ذلك إلى أثر الأفغانيّ في النهضة ومدى قدرته على تحقيق ذلك المنهج وتطبيق تلك الوسائل، فأقول: أما اهتمامه بالعلم والفكر والثقافة فهو من الأمور التي ردها كثيرا في كتاباته ورسائله ودعا إليها في دورسه ومجالسه وطبقها على نفسه وفي هذا يقول: «جالست القديسين من كل مذهب، والمقدسّين من كل جماعة، والمكرّمين من كل شيعة، والعقلاء من كل طبقة، والعظماء من كل بلد، والفلاسفة من كل إقليم»^(١).

وهذا القول يشير إلى سعة أفقه وكثرة اطلاعه من جهة، ورغبته في العلم والتماسه أنيّ كان، فهو لا يأنف من مجالسة أي إنسان يمكن أن يفيده وينفعه وهذا المنهج منسجم تماماً مع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحكمة ضالة المؤمن أنيّ وجدها فهو أولى الناس بها».

وفي هذا دعوة لمن حوله من المسلمين أن لا يقتصروا في ثقافتهم ومعارفهم على جهة معينة أو شيخ واحد، لأن تنوع الثقافات يثقل شخصية المرء ويصوغ فكره ويوسع آفاقه ومداركه. وهذا أيضا يلتقي مع دعوة الأفغانيّ إلى نبذ التعصب ورفضه، وكان للعلم في نظره مكانه عظيمة وأهمية بالغة فهو يذهب إلى «تفسير قوة الأوروبيين بامتلاكهم العلم فالعلم في نظرة هو المسؤول عن تقدم مجتمع ما أو تخلفه، وقوة شعب ما أو ضعفه، كذلك الفلسفة هي القادرة على توظيف العلوم في مكانها الصحيح وإنهاض الحياة الإنسانية وإثرائها، وتعميق الاستفادة من العلم الحديث. ومن هنا قرر الأفغانيّ أنه لو كانت روح الفلسفة موجودة في مدارس الدولة لاستطاع المسلمون بأنفسهم أن يبنوا دولهم دون الحاجة إلى إرسال البعثات إلى أوروبا أو إحضار المعلمين منها. ورأى أن المدخل إلى قوة المسلمين هو العلم، وفي ذلك يشير إلى أن الدولة الأوروبية لم تكن بالفطرة أقوى من الدولة الإسلامية وأن الفكرة السائدة عن تفوق إنجلترا على غيرها لم تكن سوى وهم»^(٢).

(١) د. علي شلش / جمال الدين الأفغانيّ بين دارسيه ص ١٠٣

(٢) انظر: د. هالة مصطفى / الإسلام السياسي في مصر ص ٣٩.

ثانياً: موقفه من التعصب المذهبي:

كان موقف الأفغاني من التعصب المذهبي واضحاً تمام الوضوح فهو حريص على جمع كلمة المسلمين وطرح أسباب الفرقة والتناحر، فنصوص القرآن مثلاً متفق على ثبوتها وكذلك السنة الصحيحة، لكن الاختلاف في فهمها أمر له مسوغاته، وليس من حق أحد أن يدعي أن معنى هذه الآية أو هذا الحديث كذا وكذا، فهذا الفهم ماهو إلا وجه من وجوه كثيرة يمكن أن تفهم من النص الواحد، ومادامت الفهوم المتعددة في إطار النظرة الإسلامية الواحدة فليس من حق أحد أن يحمل الناس على فهم معين ويلزمهم به دون غيره.

والأفغاني يرى نفسه قادراً على فهم الإسلام ونصوصه دون الحاجة إلى أن يتعصب لقول إمام دون غيره. أو يقبل اجتهاداً دون أن يكون مؤيداً بالدليل. سأله أحد العلماء عن مذهبه فقال: «أنا مسلم، وكررها، وقال بعدها: لا أعرف أحداً أعظم مني يمكن أن أتقبل طريقته» أي أنه كان يضع نفسه فوق المذاهب المختلفة ويكتفي بأنه مسلم^(١).

وقد يفهم بعض من يقرأون هذا القول أن الأفغاني يدعو إلى ترك المذاهب واجتهادات العلماء ويدعو إلى أن يجتهد كل إنسان ويفهم القرآن والسنة حسب هواه.

وأقول إن هذا الفهم ليس بمعقول ولا مقبول، فالأفغاني رحمه الله يدعو إلى العلم والمعرفة والتفكير العميق فمن وصل إلى هذه الدرجة أمكنه أن يفهم القرآن والسنة مستفيداً من اجتهادات العلماء وأقوالهم. وغير ملزم بالضرورة أن يأخذ بقول واحد منهم بل له أن يأخذ ما ترجح لديه بالدليل وأكده البرهان. وهذا يعني أن لا يتعصب المسلم لمذهب واحد من مذاهب العلماء، كما كان شائعاً في تلك الآونة أن بعض المتعصبين ربما قدّموا أقوال أئمة المذاهب على ما صبح من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي هذا غاية الضلال والانحراف، بل ومخالفة أصحاب المذاهب الذين ذكروا مرات ومرات: «إذا صحّ الحديث فهو مذهبي».

(١) د. علي شلش / جمال الدين الأفغاني بين دارسية ص ١٠٢.

يقول مصطفى عبد الرزاق: «والسيد جمال الدين . . . قد تسامى عن كل معاني التعصب لفرقة من فرق المسلمين، بل هو قد تسامى عن كل معاني التعصب الضيق الذي يلقي بين الناس إحناً وعداوات، وإذا كان السيد جمال الدين قد أثار في الشرق عاطفة التذمر من الغرب فما ذاك إلا أنه كان عدواً للظلم كله، وكان يحارب في الشرق ظلم الظالمين وكان يريد للشرقيين ألا يحتملوا من الغرب ظلماً ولاهضماً»^(١).

إن نبذ التعصب المذهبي ركن أصيل من أركان الدعوة إلى وحدة الأمة الإسلامية. فلا عجب أن يكون الأفغاني في مقدمة الداعين إلى طرح التعصب ومحاربه.

يقول الأفغاني في مقال له حاول من خلاله دعوة إيران وأفغانستان إلى الاتحاد في وجه روسيا: «فعلى الأفغانيين أن يرفعوا أبصارهم ويستقبلوا حظهم بفكر سديد وعقل رشيد، ويتقدموا للاتفاق مع إخوانهم الإيرانيين، فليس بينهم وبينهم ما يصح عليه الاختلاف في المصالح العمومية، فالجميع من أصل واحد وتجمعهم رابطة واحدة وهي أشرف الروابط، رابطة الدين الإسلامي . . . وعلى الفارسيين والأفغانيين أن يراعوا الكلمة الجامعة وصلة القرابة ولا يجعلوا الاختلاف الفرعي في المذهب سبباً في خفض الكلمة الإسلامية وقطع الصلة الحقيقية، فليس من العقل أن يقام من خلاف جزئي علة لاضمحلال الكل»^(٢).

ثالثاً: الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد:

أدرك الأفغاني بشاقب فكره أن التقليد والجمود سبب أساسي في تخلف المسلمين وضعفهم ورأى كثيرين من علماء زمانه فوجدهم عاجزين عن فعل أي شيء، حصرتهم ظروف الحياة في زوايا الجوامع، فهم لا يعرفون عن الإسلام إلا

(١) د. علي شلش / جمال الدين الأفغاني بين دارسيه ص ٤٢-٤٣.

(٢) جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده / العروة الوثقى ١٦٧.

كتباً في النحو واللغة والمنطق والكلام وبعض المسائل الفقهية العملية، يقضون أيامهم بمجاذلات لفظية، يعيشون في قرن غير قرنهم، منقطعين عما حولهم من المآسي . . . يكفرون الناس لأدنى شبهة، وقد كفروه هو لأنه دعا إلى نبذ التقليد وفتح باب الاجتهاد والعودة إلى الكتاب والسنة والأخذ بالعلوم والصناعات الحديثة^(١).

دعا الأفغانيّ إلى الإصلاح الدينيّ من خلال احترام منهج العقل وتحرير الفكر الديني من قيود التقليد وفتح باب الاجتهاد، إذ رأى أن الجمود على أقوال أناس هم أنفسهم لم يقفوا عند أقوال من سبقهم خطأ كبير، وانتقد بشدة إغلاق باب الاجتهاد بعد الأئمة الأربعة فقال: «ما معنى باب الاجتهاد مسدود؟ وأي إمام قال: لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي أن يجتهد لمنفعة في الدين؟ أو أن يهتدي بهدي القرآن وصحيح الحديث أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منها، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمان وأحكامه . . وأولئك الفحول من الأئمة ورجال الأمة اجتهدوا وأحسنوا ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن»^(٢).

إن الأفغانيّ بدعوته إلى تأويل الدين وتفسيره بما يطابق ضرورات العصر الحاضر وروح المدنية الحديثة إنما يدعو إلى الاجتهاد البصير وينفر من التقليد الأعمى أو التمسك الحرفي بكل ما قاله المفسرون^(٣).

وترى الباحثة اليهودية نيكى كيدي أن الإسلام المثاليّ في نظر الأفغانيّ هو عصر النبي وخلفائه الأربعة. الذي افتتن به لما فيه من قوة عسكرية ساحقة، فضلاً عن أن الفلاسفة المسلمين كانوا يقولون بإعادة تفسير القرآن إذا تصادم مع العقل

(١) انظر: د. محسن عبد الحميد / جمال الدين الأفغانيّ المصلح المفترى عليه ص ١٢٣.

(٢) انظر: د. هالة مصطفى / الإسلام السياسي في مصر ص ٤٠.

(٣) انظر: د. قدرى قلعجي / جمال الدين الأفغانيّ - سلسلة أعلام الحرية، ١٢/٥ بيروت، ط ٣، سنة ١٩٥٦م دارالعلم للملأين.

أو العلم ، وقد توسع الأفغاني في ذلك فشمل توسعه العلم الحديث والفلسفة الحديثة ثم فتح باب الاجتهاد من جديد مع التركيز على القرآن^(١) .

رابعاً: جمعية العروة الوثقى

تألفت جمعية العروة الوثقى حين تنادى نفر من الغيورين على الإسلام وأهله ، من مناطق مختلفة كالهند ومصر ، وفي مقدمتهم السيد جمال الدين الأفغاني والأستاذ محمد عبده ، وكانت بداية التأسيس في مكة المكرمة خلال موسم الحج ، وكانت هذه الجمعية تضم جماعة من كبار الشخصيات الإسلامية وكان العضو فيها يتعهد بأن يبذل ما في وسعه لإحياء الأخوة الإسلامية وإنزالها منزلة النبوة والأبوة الصحيحتين ، وألا يقدم إلا ما قدمه الدين ولا يؤخر إلا ما أخره الدين وألا يسعى قدماً واحدة يتوهم فيها ضرراً يعود على الدين جزئياً أو كلياً^(٢) .

وقد نقل الدكتور محمد عمارة قسّم تنظيم العروة الوثقى مشيراً إلى أنه من النصوص النادرة التي بقيت من الوثائق السريّة ونصه : «أقسم بالله العالم بالكلي والجزئيّ ، والجليّ والخفيّ ، القائم على كل نفس بما كسبت الآخذ لكل جارحة بما اجتاحت ، لأحكمّن كتاب الله تعالى في أعمالي وأخلاقى بلا تأويل ولا تضليل ولأجيب داعيه فيما دعا إليه ولا أتقاعد عن تلبّيته في أمر ولا في نهي ولأدعون لنصرتي ولأقومنّ بها مادمت حياً ، لأفضل على الفوز بها مالا ولا ولداً .

أقسم بالله مالك روحى ومالي ، القابض على ناصيتي ، المصرف لإحساسي ووجداني ، الناصر لمن نصره ، الخاذل لمن خذله ، لأبذلن ما في وسعي لإحياء الأخوة الإسلامية ، ولأنزلنّها منزلة الأبوة والنبوة الصحيحتين ولأعرفنّها كذلك لكل من ارتبط برابطة العروة الوثقى وانتظم في عقد من عقودها ، ولأراعينها في

(١) انظر : د . علي شلش / جمال الدين الأفغاني بين دارسيه ص / ٩٠ .

(٢) محمد رشيد رضا / تاريخ الأستاذ الإمام ١ / ٣٨ .

غيرهم من المسلمين ، إلا أن يصدر عن أحد ما يضر بشوكة الإسلام ، فإنني أبذل جهدي في إبطال عمله المضر بالدين ، وأخذ على نفسي في أثره مثل ما أخذ عليها في المدافعة عن شخصي .

أقسم بهيبة الله وجبروته الأعلى أن لا أقدم إلا ما قدمه الدين ولا أؤخر إلا ما أخره الدين ولا أسعى قدماً واحدة أتوهم فيها ضرراً يعود على الدين جزئياً كان أو كلياً وأن لا أخالف أهل العقد الذين ارتبطت معهم بهذا اليمين في شيء يتفق رأي أكثرهم عليه ، وعلي عهد الله وميثاقه أن أطلب الوسائل لتقوية الإسلام والمسلمين عقلاً وقدرة بكل وجه أعرفه وما جهلته أطلب علمه من العارفين ، لا أدع وسيلة حتى أحيط بها بقدر ما يسعه إمكاني الوجودي . وأسأل الله نجاح العمل ، وتقريب الأمل وتأييد القائم بأمره والناشر لواء دينه أمين ^(١) وقد اتخذ أعضاء الجمعية قراراً بإصدار جريدة باللغة العربية تخدم أهداف الجمعية وتوصل صوت الحق إلى الأقطار القاصية وفي هذا يقول الأفغاني في فاتحة الجريدة : « تألفت عصبية خيرة من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار خصوصاً البلاد الهندية والمصرية ، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ، ويوجدون كلمة الحق في كل صقع ، لا ينون في السعي ولا يقصرون في الجهد ولو أفضى بهم ذلك إلى أقصى ما يشفق منه حي على حياته

ولما كانت بدايتهم تستدعي مساعدة من في مثل حالهم رأوا أن يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتعلمون من مصابهم ويعبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالي أوروبا وكتبوا على أنفسهم النظر في أمر السلطة العامة الإسلامية وفروض القائم بها . وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ومناط اليقين وفيها موسم الحجيج العام في كل عام يجتمع إليه الشرقي والغربي ويتأخى في مواقعها الطاهرة الجليل والحقير والغني والفقير كانت أفضل مدينة تتوارد إليها أفكارهم ثم تنبث إلى سائر الجهات . والله يهدي من يشاء إلى سواء سبيل .

(١) د. محمد عمارة / الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ١/ ٥٧٩ - ٥٨٠ المؤسسة العربية للدراسات

والنشر - بيروت ط ٢ سنة ١٩٧٩ م .

ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر وأقرب إلى الظفر يستدعي أن يكون للداعي في كل قلب سليم نفثة حق ودعوة صدق ، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم بين من خفي عنه شأنهم من إخوانهم ، واختاروا أن يكون لهم في هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم ، وهو اللسان العربي ، وأن تكون في مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية تنبيهاً للغافل وتذكيراً للذا هل ، فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني أن ينشئ تلك الجريدة بحيث تتبع مشربهم وتذهب مذهبهم ، فلبى رغبتهم بل فأدى حقاً واجباً عليه لدينه ووطنه ، وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها ، فكان ما حمل الأول على الإجابة حمل الثاني على الامتثال ، وعلى الله الاتكال في جميع الأحوال^(١) .

كانت هذه الجريدة صيحة مدوية في دنيا الظلام ، أيقظت النيام ونبهت الغافلين إلى الخطر المحدق بهم ، وحملت على الاستعمار بصفة عامة والاستعمار الإنجليزي بصفة خاصة حملة لاهوادة فيها ، فكان لهذه الجريدة أثرها الكبير في النهضة واليقظة .

وقد أخذت هذه الجريدة من قلوب الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً ما لم يأخذها قبلها وعظ واعظ ولا تنبيه منه ، وهي ذات أثر في كل ماجد بعد من حركات الوطنية والحريّة في بلاد الشرق .

وقد لقيت هذه الجريدة كل مصادرة في الهند ومصر حتى كانت توضع في غلاف لتصل إلى من يراد إيصالها إليه ، وحتى أعلن في الجريدة الرسمية المصرية أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً^(٢) .

(١) العروة الوثقى - جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ص ٤٦ - ٤٧ دار الكتاب العربي - بيروت ط ٣ سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

(٢) العروة الوثقى ص ٢٤ - ٢٥ والكلام للشيخ مصطفى عبد الرزاق .

وقد صدر من هذه الجريدة ثمانية عشر عدداً في ثمانية أشهر ومجمل ما فيها من آراء وأفكار للسيد جمال الدين الأفغاني، وكان دور محمد عبده مقتصر على الصياغة اللغوية^(١).

أما منهج الجريدة فقد تمثل في بيان الواجبات التي تسبب تركها في السقوط والضعف، وتوضيح الطريق التي يجب سلوكها لتدارك مافات، والبحث في أصول الأسباب ومناشئ العلل التي قصرت بأهل الشرق إلى جانب التفریط، وكشف الشبهات التي شغلت أوهامهم ولبست عليهم مسالك الرشد، وإبطال المزاعم التي تزعم أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدنية ماداموا على أصولهم التي فاز بها أبائهم الأولون. إلى غير ذلك من مقاصد وأهداف كبيرة سعت هذه الجريدة إلى تحقيقها^(٢). ويرى الشيخ مصطفى عبد الرازق أن إنشاء هذه الجريدة كان أكبر مظهر لنشاط جمال الدين الأفغاني السياسي والأدبي في باريس، وأنه من خلالها نشر أفكاره محارباً تدخل بعض الدول الغربية في شؤون الأمم الإسلامية خصوصاً الهند ومصر^(٣).

وقد كان من المتيقن أن يكون لهذه الجريدة دوي هائل يحدث انقلاباً عظيماً في بلاد الإسلام لو أتيح لها الاستمرار في الصدور، وفي ذلك يقول الشيخ رشيد رضا: سمعت أستاذنا حسين الجسر - عالم سوريا الوحيد في الجمع بين العلوم الإسلامية ومعرفة حالة العصر السياسية والمدنية يقول: «ما كان أحد يشك في أن جريدة العروة الوثقى ستحدث انقلاباً عظيماً في العالم الإسلامي لو طال عليها الزمان»^(٤).

(١) انظر: تاريخ الأستاذ الإمام ١ / ٢٨٩ محمد رشيد رضا، الطبعة الأولى - القاهرة ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م [نقل عن د. محسن عبد الحميد ١٧٤].

(٢) انظر: العروة الوثقى ص ٤٧ - ٤٨.

(٣) انظر: العروة الوثقى ص ٢٤.

(٤) تاريخ الأستاذ الإمام ١ / ٣٠٤، نقل عن كتاب جمال الدين الأفغاني للدكتور عبد الباسط محمد حسن ص ٥٣.

لكن الإنجليز المتنفذين في مصر والهند أحسوا بخطر هذه الجريدة يهدد وجودهم ويقلق راحتهم ، فأمرُوا بمنعها « وانعقد مجلس النظار المصري في القاهرة واهتم بالبحث في شأن العروة الوثقى ثم أصدر قراره إلى نظارة الداخلية المصرية/ قاضياً عليها بأن تشدد في منع الجريدة من دخول الأقطار المصرية حفظاً للنظام العمومي»^(١). « وظلت الجريدة تصدر بعد ذلك حتى أقيمت في سبيلها العقوبات واشتدت عليها المراقبة واستحال وصول الأعداد إلى أصحابها إلا في القليل النادر ولذلك احتجبت الجريدة وسافر الشيخ محمد عبده إلى بيروت وبقي السيد جمال الدين في فرنسا»^(٢).

خامساً: الجامعة الإسلامية:

دأب الأفغانيّ على السعي إلى تحقيق وحدة بين المسلمين في شتى أقطارهم ، فقد أدرك منذ وقت مبكر أن انقسام المسلمين أعظم داء وأكبر بلاء وأنه سبب في تخلفهم وضعفهم وفي هذا يقول : «فخصصت جهاز دماغي في تشخيص دائه - أي الشرق - وتحري دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه داء انقسام أهله ، وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فعملت على توحيد كلمتهم وتنبههم للخطر الغربي المحقق بهم»^(٣).

وكان يرى أن الوحدة الإسلامية بين أقطار الإسلام هي الأساس والخطوة الأولى نحو تقدم المسلمين وعلو شأنهم وفي هذا يقول : «إن العالم الإسلاميّ يجب أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً مستمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الازدياد عن كيانه ووقاية نفسه من العناء المقبل ، وللوصول إلى هذه الغاية الكبرى ، إنما يجب عليه اقتفاء أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته»^(٤).

(١) جمال الدين الأفغانيّ / د. عبد الباسط محمد حسن ص ٥٣ ط ١ سنة ١٩٨٢ - ١٤٠٢ هـ مكتبة وهبة .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٥٣ .

(٣) جمال الدين الأفغانيّ ومحمد عبده / العروة الوثقى ص ١٣ .

(٤) د. هالة مصطفى / الإسلامي السياسي في مصر ص ٤٣ .

ومن هنا نجد الأفغانيّ يضع يده على الداء ويشخصه بشكل دقيق مبيناً الأسباب وراء تدهور أوضاع المسلمين السياسية والاجتماعية والفكرية، وماهي الوسائل الكفيلة بالإصلاح والعلاج.

أما الأسباب فأولها أنّ المسلمين ابتعدوا عن دينهم الذي هو السبب الأساسيّ في جمعهم وتوحيد كلمتهم وفي هذا يقول: «باستطاعتنا نحن المسلمين أن نبني نهضتنا وحضارتنا فقط بالاعتماد على ديننا وقرآننا، هذا هو الطريق الوحيد لقهر تخلفنا أما في حالتنا الحاضرة فحتى الأشياء الجيدة (أي التكيف مع الحضارة الحديثة) ليست إلا برهاناً على دونيتنا وتآكلنا، إننا نصبح متحضرين بتقليدنا للأوروبيين... وبعملنا هذا يفقد الإسلام سمته الجوهرية التي هي السيطرة والتفوق»^(١).

وثانيها أنّ حكام المسلمين بابتعادهم عن العلم بحقيقة الدين وحكمته وانصرافهم إلى إبراز فوارق الجنس وعصبية القبائل قد أسهموا بحالة القطيعة السياسية القائمة بين دولهم، مع حرصهم في الوقت نفسه على إقامة علاقات مع أعدائهم.

وثالثها أنّ أيّ محاولة للإصلاح إذا كانت جزئية أو مقتصرة على إصلاح جانب دون الجوانب الأخرى فلن تكون ناجحة ولن تصل إلى الغاية المرجوة^(٢).

أما الوسيلة التي كان يراها لإصلاح أحوال المسلمين فهي تقوم على أساس إنهاء دولة إسلامية والقيام على شؤونها وإيصالها إلى مصاف الدول القوية. وكان يرى أنّ الدولة العثمانية، هي المرشحة لهذا الدور باعتبارها دولة الخلافة، وكانت ثقته بالسلطان عبد الحميد وعلاقته الجيدة به مسوغاً لأن يقدم للسلطان مشروعاً سياسياً تقوم عليه حركة الجامعة الإسلامية، ويهدف إلى إقامة دولة

(١) د. هالة مصطفى / الإسلام السياسي في مصر ص ٥٣-٥٤.

(٢) انظر: د. أحمد الشوابكة / حركة الجامعة الإسلامية ص ١٢٧

إسلامية اتحادية تشمل جميع الدول والشعوب الإسلامية التي كانت قائمة، وبزعامة الدولة العثمانية، وذلك بتشكيل خديويات على غرار خديوية مصر، تكون مستقلة ذاتياً ومرتبطة بعاصمة دولة الخلافة في شؤونها الهامة. كمرحلة أولى، وأما المرحلة الثانية فتتضم جميع البلدان الإسلامية الأخرى كإيران والهند وأفغان إلى هذه الدولة الإسلامية^(١).

لقد كانت وحدة المسلمين هدفاً كبيراً سعى إليه الأفغاني سرّاً وجهراً، وحرص على تحقيقه وإعلانه والتذكير به في كل مناسبة، وقد أدرك الباحثون في سيرته ذلك مؤكدين أنه لا يقل أهمية عن الهدف الثاني الذي سعى لتحقيقه طوال حياته وهو القضاء على النفوذ الأجنبي والهيمنة الاستعمارية ولا سيما الاستعمار الإنجليزي^(٢).

وكان يرى أن قوة الدولة الإسلامية تكمن في الاتحاد والعودة إلى الفهم الصحيح للكتاب والسنة، وكان حريصاً على إيجاد دولة إسلامية قوية تقضي على النفوذ الأجنبي وكان حرصه على معاداة الإنجليز والأوروبيين والتحذير من هيمنتهم واستبدادهم يشغل حيزاً كبيراً من تفكيره وتخطيطه، ويشير إلى ذلك بوضوح قول مصطفى عبد الرزاق عنه: «كان مرمى مساعيه ومحور آماله أن يخلص دول الإسلام من النفوذ الأوروبي ماديّه وسياسيّه، وأن يعمل على رقيها الداخلي المستقل بإيجاد النظم الحرة فيها ثم يجمع شتاتها ممالك مستقلة تحت لواء خليفة واحد مكونة لدولة قوية قادرة على صد العدوان الخارجي^(٣).

ووصفه العلامة حيدر بامات بقوله: «كان أول من أدرك ما تنطوي عليه سياسة التوسع الغربي من تهديد لاستقلال دول الإسلام، فحاول تعبئة الجماهير

(١) انظر: د. أحمد الشوابكة / حركة الجامعة الإسلامية ص ١٢٨.

(٢) انظر: د. علي شلش / جمال الدين الأفغاني بين دارسيه ص ٩١.

(٣) د. علي شلش / جمال الدين الأفغاني بين دارسيه ص ٣٨ نقلاً عن جريدة "السياسة" القاهرة ٢١ مارس ١٩٢٣ م. ص ٢.

روحياً، وأكثر من مراجعة ملوك الإسلام وأمرائهم، منذراً إياهم بما يهددهم، ناصحاً باتخاذ ما يلزم من وسائل الدفاع وكان يشعر بالخطر شعوراً حاداً. ويقدر للوصول إلى أهدافه أن تقوم قبل كل شيء حكومات دستورية وأن تتحقق إصلاحات اجتماعية تؤدي إلى جعل الأمم الإسلامية في مصاف الأمم الغربية»^(١).

* وسائل الأفغاني:

سلك الأفغاني وسائل متنوعة ومسالك شتى في سعيه الدؤوب لتحقيق أهدافه التي كانت واضحة في ذهنه تماماً، فكان لا يألو جهداً ولا يدخر وسعاً في الاستفادة من الوسائل المتيسرة، وهو بذلك يعلم الدعاة أن يعملوا بما تيسر لديهم من إمكانيات ووسائل، وكلما تقدموا قليلاً تيسر لهم من الوسائل ما يكفل لهم المزيد فلا يزالون في تقدم وتوسع وانتقال إلى آفاق أرحب وميادين أكبر، فالدعوة فيها النماء والبركة ما بذل لها المخلصون، وسعى في تطوير العمل لها العاملون الصادقون. فإذا حصرنا أنفسهم في زاوية ضيقة وقلصوا جهودهم بدعوى إعادة النظر في الإصلاح الداخلي، حدث التراجع والانطواء وبدأت المشكلات تتفاقم وأبواب الفتن والتأويلات تنفتح. وإذا لم يكن من المراجعة بدء، فلا بأس أن تتمشى جنباً إلى جنب مع الإصلاح الخارجي وتطور الدعوة وآفاق العمل. ومن الوسائل التي استخدمها الأفغاني:

- أولاً: الاهتمام بالصحافة وتشجيع أصحابه وتلاميذه على الكتابة فيها:

فالصحافة تقوم بدور كبير في خدمة الثقافة والمثقفين وتلبية حاجات المهتمين وتشكيل وتوجيه الرأي العام.

«وكانت القوة المحركة وراء صحافة المعارضة تتمثل في الأفغاني، فقد شجع أتباعه على كتابة آرائهم والإعلان عنها ونقد أعمال الحكومة والأجانب، ونشر

(١) جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده / العروة الوثقى - مقدمة الناشر ١٥ - ١٦.

مثل الإصلاح والتجديد»^(١)، وكان من أبرز نشاطاته الصحفية إنشاء جريدة العروة الوثقى التي كان لها دور بارز في إيقاظ الهمم وبعث النفوس على العمل الجاد المخلص والسعي إلى التخلص من نير الاستعمار وحينما انتقل الأفغاني إلى لندن أخذ يكتب في صحيفة «ضياء الخافقين» وهي صحيفة عربية، وشن حملة على شاه إيران من خلال تلك الصحيفة، بسبب مواقفه وإعطائه الامتيازات لبعض الشركات الأجنبية^(٢).

وقد أثارت كتاباته السياسية ضجة كبرى، وكان لها دوي شديد في مصر، ورجع صدى في إنجلترا، إذ بين أساليب الإنجليز وحيلهم في استعمار الشرق»^(٣).

- ثانياً: الاشتغال بالتدريس وبث الأفكار الإصلاحية من خلاله :

كان الأفغاني قد جعل من بيته في مصر جامعة حرة، يلتقي فيه بطلاب العلم ويلقي عليهم دروساً عن مذاهب الإسلام الكلامية والفلسفية ويمزج بين أفكاره السياسية وتعليم العلوم الإسلامية الخالصة من كل روتين رسمي، والمستقصاة بروح عصرية، ويبدل طاقته لدى المستمعين في إيقاظ الميل إلى النظم الحرة والعزم على إنقاذ مصر من سلطان القوى الأجنبية^(٤).

وقد كانت هذه الدروس والاجتماعات وسيلة من أهم الوسائل التي استخدمها في نشر أفكاره وإيصال فهمه إلى الناس عبر تلاميذه ومريديه.

وقد وصف الأستاذ محمد عبده دور شيخه جمال الدين في الإصلاح والنهضة، وأثره الكبير في تعريف الناس بكنه وجودهم وغاية خلقهم، وبحريتهم وحقهم في الحياة الكريمة فقال: «إن أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ - ١٨٧٧ م كانوا يرون شؤونهم العامة بل والخاصة ملكاً لحاكمهم الأعلى ومن

(١) د. علي شلش / جمال الدين الأفغاني بين دارسيه ص ١١٠.

(٢) انظر د. هالة مصطفى / الإسلام السياسي في مصر ص ٣٨.

(٣) د. محسن عبد الحميد / جمال الدين الأفغاني ص ١٨.

(٤) انظر: العروة الوثقى ص ١٥.

يستنيه عنه في تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب إرادته». ويقول: «هل كان يمكن لأحد أن يعمل على خلاف ما يأمر به؟ هل كان يمكن لشخص أن يميل بفكره عن الطريق التي رسمت له؟ أو الوجهة التي يتوجه إليها الحاكم لوحدثه الفكر السليم بأن هناك وجهةً خيراً من تلك؟ هل كان يمكنه أن ينطق بما حدث به فكره؟ كلا... فإنه كان بجانب كل لفظ يؤدي إلى نفي، عن الوطن أو إزهاق للروح، أو تجريد من المال».

ثم يقول: «وبينما الناس على هذا، لا كاتب ينبههم، ولا خطيب يعظهم، إذا عرض أمر قلما يلتفت إليه، وإن كان مما جرت به السنة الإلهية في كل زمان».

جاء إلى هذه الديار في سنة ١٢٨٦ هـ رجل غريب، بصير في الدين عارف بأحوال الأمم، واسع الاطلاع، جم المعارف جريء القلب، وهو المعروف بالسيد جمال الدين الأفغاني، اشتغل بالتدريس لبعض العلوم العقلية... فاستيقظت مشاعر، وانتبهت عقول فخف حجاب الغفلة»^(١).

ثم يقول: «وقد صاحبه ابتداءً من شهر المحرم سنة ١٢٨٧ هـ، وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية (الفلسفية) والكلامية، وأدعو الناس إلى التلقي عنه كذلك»^(٢).

- ثالثاً: ممارسة النشاط من خلال الجمعيات والأحزاب.

ومن أبرز هذه الجمعيات جمعية العروة الوثقى التي أنشأها الأفغاني بمعاونة تلميذه محمد عبده وعدد من الشخصيات الإسلامية كما سبق بيانه. وكان لهذه الجمعية فروع في شمال أفريقيا ومصر والهند وغيرها.

كما التحق الأفغاني بالمحفل الماسوني، وهو أمر لا شك فيه، فالأفغاني أقام في مصر من سنة ١٨٧١ إلى ١٨٧٩، وفي السنوات الثلاث الأخيرة شغل نفسه

^(١) العروة الوثقى ١٤-١٥.

^(٢) عباس محمود العقاد / محمد عبده، عبقرية التربية والتعليم، سلسلة أعلام العرب، العدد الأول، وطبعة منشورات المكتبة العصرية ص ٧٠، صيدا - بيروت.

بالكتابة والخطابة والنشاط الماسوني. وكانت المحافل الماسونية آنذاك قد نشطت نشاطاً كبيراً بسبب كثرة الأجانب الأوروبيين في مصر، وتردي الوضع الاقتصادي واستبداد الخديوي إسماعيل. ووجد الأفغاني في الماسونية وسيلة اتصال بالجماهير فأقبل على الاتصال بمحافلها التي كان تحت سيطرة الأوروبيين، وقد نشط الأفغاني في هذه المحافل حتى آخر يوم في إقامته بمصر، بل إنه كون لنفسه ومريديه محفلاً خاصاً، وحاول من خلاله أن يعزل الخديوي إسماعيل ويولي ابنه الخديوي توفيق وقد حفظت لنا الوثائق طلباً قدمه الأفغاني للالتحاق بالمحفل الماسوني قال فيه: يقول مدرس العلوم الفلسفية بمصر المحروسة، جمال الدين الكابلي الذي مضى من عمره سبع وثلاثون سنة بأنني أرجو من إخوان الصفاء وأستدعي من خلان الوفاء، أعني أرباب المجمع المقدس الماسون، الذي هو عن الخلل والزلل مصون، أن يمنوا عليّ ويتفضلوا إليّ بقبولي في ذلك المنتدى المفتخر، ولكم الفضل. ربيع الثاني سنة ١٢٩٢ يوم الخميس ٢٢^(١).

وقد حاول كثير من الباحثين والدارسين لسيرة الأفغاني أن يتخذوا من دخوله الماسونية ذريعة للتشكيك في ولائه للإسلام، واتهامه بالإلحاد ومن هؤلاء المرحوم الدكتور محمد محمد حسين في كتابه (الإسلام والحضارة الغربية).

ولو أن هؤلاء الباحثين درسوا الموضوع بحذر وإنصاف لأمكنهم أن يصلوا إلى أحكام منصفة بحق الرجل. فمما لا شك فيه أن الماسونية لم تكن معروفة بأهدافها وميولها ودوافعها لدى جمال الدين وغيره، فكل ما كان يظهر منها أنها جمعيات، شعارها الحرية والإخاء والمساواة، وكانت تعمل بشكل علني ولم يكن أحد من العلماء يعلم شيئاً عن أسرارها وخفاياها.

وفي هذا يقول الدكتور محسن عبد الحميد: «لم أقرأ في الكتب التي رجعت إليها عن كل ما يتصل بتلك الفترة أن علماء الإسلام ومفكره كانوا يعرفون عن

(١) انظر: د. علي شلش / جمال الدين الأفغاني - سلسلة الأعمال المجهولة ص ٢٤٦ الناشر: رياض الرئيس للكتب والنشر - لندن.

الماسونية ما نعرفه اليوم عنها ، فلم يصل إلينا كتاب أو مقال كتبه عالم أو مؤرخ قبل دخول الأفغانيّ إلى الماسونية (١٨٧٨ م) ينبه المسلمين إلى يهوديّة الحركة الماسونية وأهدافها الحقيقيّة التي ظهرت في القرن العشرين ، ولو كان موجوداً لوصل إلينا لانتشار الطباعة قبل ذلك الوقت ولعظم الحاجة إلى نقله^(١) .

ويقول أيضاً: «من الثابت في حياة الأفغانيّ أن كثيراً من العلماء في زمانه قد حاربوه محاربة شديدة واتهموه بكثير من التهم قبل دخوله الماسونيّة وبعده ، ولم نجد قط أحداً منهم غيرّه بدخوله يوماً ما في الماسونية . . . وهذا دليل قوي يثبت أن أهل زمانه لم يكونوا يعرفون عن الماسونية إلا أنّها جمعية اجتماعية جامعة بين أخلاط من الناس ولو كانوا يعلمون حقيقة الماسونية لاستعملوا دخول الأفغانيّ فيها سلاحاً خطيراً لمحاربته»^(٢) .

وينقل عن الدكتور أحمد أمين قوله: «وسبب دخول الأفغانيّ محفل مصر هو أن هذه الجمعية الماسونية في مصر كانت تضم كثيراً من عليّة القوم لعله بذلك يتمكن من إيصال فكره إليهم ، ولكن ما إن دخل السيد فيه حتى ثارت ثائرتة وأخذ يهاجمه في تصرفه ، وينقده في خطبه المتوالية ، لأن أعضاءه لا يحبون أن يتكلموا في السياسة»^(٣) .

لقد التحق الأفغانيّ بالمحفل الماسونيّ الاسكتلنديّ ، ليتعرف بالأعضاء الذين يضمهم هذا المحفل وليعملوا متضامنين على رفع الظلم عن الشعب ولكنه أدرك بعد مدة وجيزة أن من الصعب عليه أن يحقق رغباته عن طريق هذا المحفل ؛ لأن أعضاءه كانوا يخافون بطش الحكومة فلم يتدخلوا في السياسة ولم يستجيبوا لرغبة الأفغانيّ بالاشتغال بالمسائل العامة ، ولأنهم كانوا حريصين على المناصب وتحقيق مصلحتهم الذاتية ، ولتمسكهم بتقاليد الماسونية القديمة . ولهذه الأسباب

(١) جمال الدين الأفغانيّ المصلح المقترى عليه ص ١١٨-١١٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٠ .

(٣) انظر : أحمد أمين- زعماء الإصلاح ص ٧٣ نقلاً عن د. محسن عبد الحميد ص ١٢١ .

نجد الأفغانيّ يهاجمهم بصراحة وجرأة فيقول : «كنت أنتظر أن أسمع وأرى في مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكن ما كنت لأتخيل أنّ الجبن يمكن أن يدخل بين إسطوانتي المحافل الماسونية . . . إذا لم تدخل الماسونية في سياسة الكون وفيها كل بناء حر ، وإذا آلات البناء التي بيدها لم تستعمل لهدم القديم ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة ولا قامت لبنائتهم زاوية قائمة»^(١) ولما وجد الأفغانيّ أنّ المحفل الأسكتلنديّ لن يساعده في تحقيق سياسته أنشأ عام ١٨٧٨ م محفلاً وطنياً جديداً تابعاً للشرق الفرنسيّ وظل يدعو إليه حتى بلغ عدد أعضائه العاملين أكثر من ثلاثمائة من نخبة المفكرين وقسم الأعضاء العاملين إلى عدة شعب . . . لتتابع كل شعبة وزارة أو مصلحة . فتدرس شؤونها ثم تتصل بالوزير المختص فتبلغه رغباتها وتملي إرادتها بأسلوب حازم وطريقة واضحة .

ولقد زاد نفوذ المحفل الجديد وعظم شأنه حتى إن الأمير توفيق ولي العهد طلب الدخول فيه . . وصار للأفغانيّ أصدقاء من أصحاب المناصب العالية من أمثال محمود سامي البارودي وعبد السلام المويلحي وكثر سواد الذين يخدمون أفكاره . . .»^(٢) .

ولم يقتصر نشاط الأفغانيّ على المحفل الماسوني بل إنه أنشأ الحزب الوطنيّ الحر في أوائل عام ١٨٧٩ م ، ودخل فيه كثير من العلماء والنواب ، منهم الشيخ محمد عبده وعبد الله النديم وحسن السيد قنديل وغيرهم .

وكان جمال الدين يدعو إلى هذا الحزب في مختلف جهات مصر ، فذهب إلى الإسكندرية ودعا الأهالي إلى الدخول فيه ، فقال : «ولهذا أرجو منكم أيها السادة أن تقيموا حزباً وطنياً يصون لوطنكم حقوقه ويحفظ عليه بهاءه»^(٣)

إن الأفغانيّ حاول بكل ما استطاع من الوسائل والأساليب أن يثبت أفكاره ويوصل آراءه التي كانت نواة للتحرر من قيود الاستعمار ونير الخنوع

(١) انظر : محمد الخزومي - خاطرات جمال الدين ص ٤١ نقلًا عن د . عبد الباسط محمد حسن ص ١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) انظر : د . عبد الباسط محمد حسن / جمال الدين الأفغانيّ ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ١٧٢ - ١٧٣ .

والاستكانة ، ولقد كانت هذه الأفكار مقدمة ضرورية للنهضة والإصلاح اللذين تحققا بعد ذلك بوقت وجيز .

- رابعاً: محاولة الإفادة من المعارف والأصدقاء .

نال الأفغاني شهرة كبيرة منذ وقت مبكر من حياته ، فقد صار كبير الوزراء في بلده أفغانستان وهو في العشرين من عمره ، وكان لما عرف عنه من علم وثقافة غزيرة أثر كبير في انتشار شهرته وذيوع صيته ، وزاد في ذلك كثرة أسفاره وتنقله في طول البلاد وعرضها .

فالرجل قد عرف الناس وخالطهم من أدنى المستويات إلى أعلاها وفي ذلك يقول : «جالست القديسين من كل مذهب ، والمقدسين من كل جماعة والمكرمين من كل شيعة والعقلاء من كل طبقة ، والعظماء من كل بلد والفلاسفة من كل إقليم»^(١) .

ويذكر الشيخ محمد عبده في ترجمة أستاذه كيف كان الناس يحرصون على لقائه والاستماع إلى كلامه وأن هؤلاء الناس كانوا على أعلى المستويات في مناصب الحكومة وقيادات الدولة ، فيقول مشيراً إلى خطاب الأفغاني الذي ألقاه في دار الفنون تركيا : «فلما كان اليوم المعين لاستماع الخطاب ، تسارع الناس إلى دار الفنون ، واحتفل له جمع غفير من رجال الحكومة وأعيان أهل العلم وأرباب الجرائد ، وحضر في الجمع معظم الوزراء ، وصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة وألقى ماكان أعده . . .»^(٢) .

ويشير في موضع آخر إلى الخطوة التي لقيها الأفغاني في مصر حين قدمها ، فيقول : «مال السيد جمال الدين إلى مصر على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمة على الإقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا ، فاستمالته مساعيه إلى المقام ، وأجرت عليه الحكومة وظيفة ألف قرش

(١) د . علي شلش / الأفغاني بين دارسيه ص ١٠٣ .

(٢) أدونيس وخالدة سعيد / الإمام محمد عبده ص ٢١٠ ، ديوان النهضة - دار العلم للملايين - بيروت .

مصري كل شهر، نزلاً أكرمته به لا في مقابله عمل . . . وعظم أمر الرجل في نفوس طلاب العلوم واستجزلوا فوائده الأخذ عنه وأعجبوا بدينه وأدبه، وانطلقت الألسن بالثناء عليه، وانتشر صيته في الديار المصرية^(١). وكانت له علاقة طيبة مع السلطان عبد الحميد، وكثيراً ما كان يجلس إليه ويتشاور معه في أمور الإسلام والمسلمين والدولة والبلاد الإسلامية، ويبين الأفغاني جانباً من هذا بقوله في خاطراته: «أما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكائد أوروبا وحسن نواياه واستعداداته للنهوض بالدولة الذي فيه نهضة المسلمين عموماً، فقد دفعني إلى مدّ يدي له فبايعته بالخلافة والملك، عالماً علم اليقين أنّ الممالك الإسلامية في الشرق لا تسلم من شرك أوروبا، ولا من السعي وراء إضعافها وتجزئتها، وفي الأخير ازدرادها واحدة بعد أخرى، إلا بيقظة وانتباه عمومي وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم»^(٢).

لقد كان الأفغاني فقيهاً بأمور السياسة والدول، بعيد النظر قوي الإدراك طامحاً إلى الإصلاح والنهضة والحرية، وقد أدرك أن مصالح الاستعمار تقتضي السعي في تفريق المسلمين وتمزيقهم، فسعى لإصلاح أحوال المسلمين وجمع كلمتهم وحاول بكل وسائله وأساليبه أن يستفيد من هؤلاء الأصدقاء والمعارف ليصل إلى أهدافه في جمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم وإيجاد دولة قوية تجابه الاستعمار وتمنعه من تنفيذ رغباته في بلاد المسلمين، ومن هنا كانت مشاوراته مع السلطان عبد الحميد وتقديمه النصيحة له كلما سمحت الظروف وأتيحت الفرص. وكانت له علاقات أيضاً مع شاه إيران وخديوي مصر وغيرهما، فكان يسعى إلى النصح والتوجيه، ويعمل بما أوتي من جهد راغباً في التغيير نحو الأفضل. فهو قد أدرك بوضوح أنّ المسلمين في ذلك الوقت يعانون من الانهيار والتمزق وأسباب ذلك عنده هي:

(١) المرجع السابق ٢١١-٢١٢.

(٢) خاطرات جمال الدين الأفغاني ص ٣٦ نقلاً عن د. محسن عبد الحميد / جمال الدين الأفغاني ص ١٣٧.

١. أن كثيراً من علماء الدين غلب عليهم الجهل والتقليد الأعمى .
٢. وأن كثيراً من حكام المسلمين فاسدون وطغاة يحكمون المسلمين بالقوانين الوضعية .

٣. وأن الأمة عاجزة سياسياً ودينياً لانقسامها وتمزقها .

وكان يسعى دائماً إلى إيجاد العلاج لهذه الداء ، فأحيا حركة جديدة ليسير تحت لوائها الآخرون وبذلك أثر في العديد من الطلاب والمثقفين بجاذبية شخصيته ، ونجحت دعوته للإصلاح السياسي في مصر بصفة خاصة^(١) .

- خامساً: أسفاره ورحلاته وأثرها في نشر الإصلاح والدعوة .

عرف عن الأفغاني كثرة سفره وترحاله ، وفي كثير من الأحيان كان يُخرج إخراجاً بسبب ما كان يقوم به من نشر الوعي وتعريف الناس بالأخطار المحدقة بهم ، وكانت شهرته ترافقه حيث توجه ، فما يلبث أن يجتمع له طلبة العلم ورواد الثقافة يأخذون عنه مبادئه وآراءه كما يأخذون عنه علمه وفلسفته ، فساعد هذا على نشر أفكاره الإصلاحية في أماكن متعددة من العالم ، تلك الأفكار الرائدة التي كونت : «تياراً فكرياً وحركة سياسية في آن واحد عكست طبيعة المهمة الأساسية التي اضطلع بها الأفغاني ، وهي الرد على عاصفة الاستعمار الغربي التي اجتاحت المنطقة في ذلك التاريخ من خلال تقديم نموذج إسلامي حضاري يقي البلدان الإسلامية مخاطر التدهور والانسحاق أمام المحتل الأوروبي المتقدم عليها»^(٢) .

رأي الأفغاني في الحضارة الغربية:

ترى الباحثة اليهودية (نيكي كيدي) في كتابها «رد الفعل الإسلامي للاستعمار» أن الأفغاني كان ينظر إلى الغرب نظرتين متناقضتين فهو من جهة يدعو المسلمين إلى اتباع الغربيين والسير على منهجهم للوصول إلى التقدم

(١) انظر : د . علي شلش / الأفغاني بين دارسيه ص ١٠٩ .

(٢) د . هالة مصطفى / الإسلام السياسي في مصر ص ٣٧ .

والنهوض كما وصل الغربيون، ويدعوهم من جهة أخرى إلى تجنب الاستجابة للغرب، فتقول: «وكان الصراع بين الرغبة في التغريب والحاجة إلى تجنب الاستجابة للغرب أحد جذور التناقضات في أفكار الأفغاني فضلاً عن التناقضات الكاملة في برنامجه»^(١).

ويبدو أن الباحثة اليهودية قد تجاهلت عن قصد ذلك الفرق الواضح بين الأمرين، فالأفغاني حين دعا إلى اتباع الغربيين لم يغيب عن ذهنه أن التحدي الغربي يشكل تهديداً حضارياً لأمة الإسلام، فهو لم يدع إلى اتباع الغربيين وتقليدهم في كل شيء بل دعا إلى الاستفادة من تجربتهم في النهضة والإصلاح، وتقليدهم في بعض نظم الحكم والإدارة، فهو يرى أن المسلمين متخلفون في مجال الصناعات والتقدم العلمي، فهم محتاجون إلى أخذ هذه الصناعات والعلوم عن الغربيين الذين برعوا فيها. والمسلمون يحكمون بالاستبداد وكبت الحريات، بينما الغربيون قد وصلوا إلى الحرية، وتحرروا من رتبة الاستبداد والقهر مما أطلق أمامهم الآفاق في ميادين البحث والعلم فوصلوا إلى درجة عالية، وعلى المسلمين أن يقلدوهم في ذلك ليصلوا إلى ما وصلوا إليه.

فالأفغاني يرى أن الموقف الصحيح في مواجهة الحضارة الغربية يكون على أساسين. أولهما: انطلاق الأمة من قاعدة سليمة توجه ثقافتها وفكرها، وهذه القاعدة هي العودة إلى الإسلام والأخذ بأحكامه وجمع الكلمة وتطهير القلوب، ولا سبيل لليأس والقنوط، فإن جرائم الدين متأصلة في النفوس بالوراثة في أحقاب طويلة والقلوب مطمئنة إليه، وفي زواياها نور خفي من محبته فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسرى نفسها في جميع الأرواح لأقرب وقت، فإذا قاموا لشؤونهم وضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم بلغوا في سيرهم منتهى الكمال الإنساني. ومن طلب إصلاح الأمة بغير ذلك لم يزد لها إلا تعساً وبلاءً. الأساس الثاني: أخذ ما تحتاج إليه الأمة من أحسن ما عند الأمم من العلم

(١) د. علي شلش / الأفغاني بين دارسيه ص ٩٢.

والصناعة والاستفادة من الأمم الحضارية الراقية في التخطيط الحضاري الجيد، ونبذ ما كان مألوفاً في الغرب الذي لا يوافق طباع المسلمين ويصطدم مع أصول دينهم وحضارتهم^(١).

وخلاصة الأمر أن الأفغانيّ يدعو المسلمين إلى اكتساب المعرفة العلمية والتقدم الصناعي والزراعيّ والتقنيّ، ونقل ما وصل إليه الغرب في ذلك.

ويدعو إلى تجنب تقليد الغربيين في طريقة حياتهم وأساليب معيشتهم، وما فيها من انحلال وشذوذ وانفلات من القيم ومفارقة للأخلاق. فالعالم الإسلاميّ ليس بحاجة إلى طراز الحياة الغربية في مظاهر الحياة الاجتماعية والأفكار المادية وهندسة البناء وأنظمة التصرف والسلوك.

«والأفغانيّ لم يتحمس لمجرد النقل عن أوروبا حيث رأى أن نقل أسباب الحضارة من علوم وفنون وفلسفة لا يتم بمجرد التعليم. إذ وراءها نظرة فكرية أعمق وأشمل بل نظاماً للأخلاق الاجتماعية، ومن هنا رأى أن البلدان الإسلامية ضعيفة لأن المجتمع الإسلاميّ فاسد. إن الأفغانيّ لم يهتم بقشور الحضارة الغربية ولم يدعُ لمجرد النقل عنها، ولكن رؤيته وفهمه لها تعدى هذه الحدود لينفذ إلى الأسباب العميقة للحضارة وإلى الرؤية الفلسفية الشاملة التي تحكمها، وإن تحديد الأفغانيّ لمشكلة العالم الإسلاميّ والدعوة لنهضته لم تأت بمعزل عن رؤيته للخطر الأوروبي المباشر. فهو قد أبدى إعجابه صراحة بالحضارة الأوروبية، ورأى أيضاً أن مواجهتها تكون بالنهضة والأخذ بأسباب العلم الحديث»^(٢). وبهذا يتضح أنه ليس بين الأمرين تناقض وأن وجهة نظر الأفغانيّ في تحليله وتشخيصه صائبة سديدة، وأن اتهامات تلك الباحثة باطلة من جهة ومشيرة إلى حقد وغيظ من جهة أخرى.

(١) الأعمال الكاملة للأفغانيّ ص ١٩٩، نقلًا عن د. محسن عبد الحميد / جمال الدين الأفغانيّ ص ٥٨-٥٩.

(٢) د. هالة مصطفى / الإسلام السياسي في مصر ص ٣٩-٤٠.

الخاتمة

إن الأفغانيّ شخصية عظيمة ورجل من كبار رجال الإصلاح عاش في حقبة مليئة بالمفارقات والتناقضات، وكانت حياته سلسلة متواصلة من الجولات والرحلات، بينها واحات استراحة وجمام، وقد أثارت حياته جدلاً واسعاً بين أنصاره وخصومه ولكل من الفريقين أدلته فيما ذهب إليه، لكن رسوخ الحقيقة يقتضي قوة الأدلة وسطوع البراهين.

وبعد أن طوّفت بين الكتب وعرفت كثيراً مما كتب عنه وقيل فيه تبين لي مجموعة من الحقائق أثبتتها فيما يلي:

- ١- كان الرجل منذ نشأته يمتاز بذكاء شديد ونباهة عجيبة وقدرة ذهنية فائقة.
- ٢- وقد أحسن أبوه تربيته وتعليمه فدفعه إلى اكتساب العلم والمعرفة منذ وقت مبكر فأفلح وحذق في تلقي أنواع كثيرة من العلوم والمعارف كانت الركيزة الأساسية التي أهلته لجميع المراحل اللاحقة في حياته المباركة.
- ٣- وكان داعية إصلاح، ذا فهم عميق ونظر ثاقب في الأمور، مع غيرة على الدين وأهله وحرص على تنبيههم إلى الخطر المحدق والعدو المتربص.
- ٤- وكان ذا جاذبية شخصية وقدرة عجيبة على اقتحام الدوائر الحكومية ومواقع صعب القرار، وله تأثير شديد فيمن حوله، وكان واضحاً في أهدافه ومراميه، يسعى إليها بكل أسلوب صحيح وطريقة مشروعة.
- ٥- وكان زاهداً في الدنيا ومتاعها، يكتفي بالقليل من الطعام والشراب واللباس.
- ٦- زرع في المصريين بصفة خاصة بذور الحرية والشجاعة ورفض الاستبداد والخوف وأحيا فيهم ملكة الاستعداد لمواجهة الظلم بروح التضحية والصبر.
- ٧- كان عدواً لدوداً للاستعمار بشكل عام وللإنجليز بشكل خاص، ولم يكن يخفي عداوته بل يحرص على إظهارها وبيان ظلم الإنجليز واستيلائهم على خيرات المسلمين وسعيهم لتفريق كلمة المسلمين.

- ٨- وكان ناصحاً أميناً للمسلمين حكاماً ومحكومين : سعى إلى إنشاء الجامعة الإسلامية وقدم مشروعاً يتضمن كيفية تحقيقها .
- ٩- أعلن الحرب على التقليد والتبعية والتعصب الأعمى ، وأعلن عن فتح باب الاجتهاد أمام القادرين ورفض ما يدعيه المقلدون من جمود وانغلاق .
- ١٠- ربي تلاميذه على الجرأة في الحق والرغبة في التغيير وقد نبغ من هؤلاء كثيرون كان من أبرزهم الإمام محمد عبده الذي قاد مدرسة الإصلاح من بعده وكان لأفكاره ودروسه أثر كبير في النهضة الإصلاحية الحديثة .